

لغة الجسم وإشكالية المعنى

أ.د. مخلوف بوكروح

أستاذ التعليم العالي

وقسم علوم الاعلام والاتصال

كلية العلوم السياسية والاعلام

جامعة الجزائر

تمهيد:

تعود المحاولات الأولى لتعريف التعبير الجسدي إلى القرن السادس عشر. وقد تباينت آراء الفلاسفة والمنظرين حول وظيفة الجسم التعبيرية، حيث استبعد الفيلسوف الفرنسي هوسرل Husserl الجسد من التعبير منطلقا من أنه لا يتجاوز حدود مستوى الرغبة في القول vouloir dire الذي يمنح القدرة الفعلية للتعبير للقول وليس للجسد، ويشكل وفقا لرؤيته عائقا يخفي الوجود المباشر والفعل للمدلول.

أما م. بونتي M.Ponty فيخالف طروحات هوسرل حيث يرى أن التعبير يتجاوز الفعل الذي يهدف إلى خلق معنى ما، بل يطال إدراك العالم المحيط بنا، والذي أرسى قواعد الاتفاق الأصلي القائم بين الرائي والمرئي، فهو الذي يضيف المعنى على الأشياء. وانطلاقا من هذه الرؤية للتعبير لا يصبح الجسد كما كان في نظر هوسرل ذلك الغشاء الذي يعوق القدرة على التعبير، بل يصبح هو ذاته منبع التعبير الأصلي الذي يعطي ذلك معنى للتعبير اللغوي أو بتعبير أوضح يعطي اللغة القدرة على التعبير.

إن الجسد وفقا لرؤية بونتي كأداة لفهم العالم لا تنحصر مهمته في كونه أحد أدوات الفهم والتعبير وإنما هو مصدرها الأساسي، فهو الذي يكشف عن

المعاني الداخلية ويبرزها إلى حيز الوجود. ويرى بونتي أن أي استخدام لجسدا هو في الحقيقة تعبير بدائي أصلي أي أنه لا يقوم بالدور الثاني في عملية خلق وتوليد المعنى، وإنما هو أصل المعنى الذي يكسب الرموز والدلالات صفتها.⁽¹⁾ وهذا الرأي يعززه تيلييات Tiliette الذي يعتبر أن الجسد هو مظهر الوجود "L'être" لأنه جزء منه يعكس سكونه وصمته ويترجمها إلى معان.⁽²⁾

ينطلق بونتي من العلاقة القائمة بين قدرة الجسد على الإحساس وبين اللغة ويبرز تفسيره الخاص للغة بوصفها سلوكا اجتماعيا Gestus. ويعد الكلام وفقا لهذه الرؤية وسيلة التلاحم بالجسد مع الأشياء ومع العالم، ليس بغرض محاكاتها وإنما لصياغتها صياغة جديدة من خلال اللغة. ويعتقد بونتي أنه يمكن ملاحظة أول خطوط تشكّل مفردات اللغة في التومئة المشحونة بالانفعالات التي يغلف بها الإنسان العالم المادي بعالم رمزي إنساني، وهذه الوظيفة في الحقيقة ما هي إلا أحد أشكال استخدام الجسد استخداما يرتبط بشكل مستمر بالفعل البيولوجي وهو حامل لمعنى ما وإن كان افتراضيا، فضلا عن ارتباطه الوثيق بالفعل البيولوجي والفسولوجي أو الوظيفي.⁽³⁾

يجمع الباحثون على أن القناة الكلامية تستعمل بشكل رئيسي لنقل المعلومات، على حين تستعمل القناة الصامتة للتعبير عن المواقف الداخلية، وفي بعض الحالات تنوب عن الرسائل الكلامية، علما أن الكثير من اتصالات الإنسان تتم بواسطة الإيماءات والأوضاع والمسافات المختلفة الناجمة عن حركة الجسم. والواقع أن الإنسان - بشكل عام - يستخدم لغتين منفصلتين تماما، قد تتفق أو تختلف في الرسائل التي تنقلها حسب الظروف. فهو يستخدم اللغة اللفظية لنقل المعلومات حول الحقائق والأشياء، وللتعبير المنطقي وحل المشكلات، فضلا عن إمكانية تدوينها، لكنه يستخدم كذلك لغة الجسد Body language بشكل لا شعوري للتعبير عن مشاعره وانفعالاته وحاجاته

واتجاهاته، وتحتل موقفا متميزا في العلاقات الشخصية المتبادلة، وهي أيضا اللغة التي يعتمد عليها الأداء الفني: الممثلون، الراقصون، وغيرهم من المؤدين. وهذه اللغة هي الأكثر صعوبة من حيث الكتابة وقراءة دلالتها.

طرق ووسائل قراءة لغة الجسم:

إن الاهتمام بلغة الجسم حديث نسبيا، ذلك أن الاتصالات الصامتة لم تخضع للبحث تاريخيا، فلم تحدث مثل هذه الدراسات إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين، حيث تم إدراك دلالات هذه اللغة*. ونظرا لأهمية الجسد في الاتصال أولى العلماء والباحثون في مختلف التخصصات عناية خاصة لدراسة لغة الجسد. وقد نتج عن هذا الاهتمام ميلاد نوع جديد من علماء الاجتماع "الصمتي" الذين يدرسون اللغة غير اللفظية مهمتهم مراقبة ورصد تصرفات الفرد وإيماءاته وإشارات الاجتماعية.⁽⁴⁾

وقد توصلت الدراسات التي أجريت في الميدان إلى حصر عدد هائل من الإيماءات الصامتة والإشارات تمحضت عنها نتائج هامة تفيد أن التأثير الكلي للرسالة ينقسم إلى حوالي 7% ناطق (كلمات فقط) و38% صوتي، و55% صامت. وتوصل البعض الآخر إلى نتائج مشابهة بالنسبة لمقدار الاتصال الذي يجري بين البشر، وقدر بأن الشخص العادي يتحدث فعليا لمدة 11 دقيقة في اليوم، وأن الجملة العادية تحتاج فقط إلى 2.5 ثانية، وأن الجزء الكلامي من محادثة وجاهية يساوي أقل من 35% وأن أكثر من 65% من الاتصال يتم بدون كلام.⁽⁵⁾

وقد واجه الباحثون صعوبات كبيرة في قراءة لغة الجسم. وفي هذا المجال نشير أن التدوين أو الكينيتوغرافيا kinetography (كاميرا لتصوير الأشياء المتحركة) كما يسميها لابان يساعد الشخص القائم على الملاحظة أن يحصل على

تسجيل واضح ومضبوط لحركة ما، مستدعيا كل بواطن التعبير. وقد سمح التدوين في مجال الفنون من دراسة خصائص هذا التعبير وأثبت أيضا فعاليته في مجال الصناعة والرياضة والطب النفسي باعتباره وسيلة لاستقصاء الفعل والسلوك.

وقد سمحت هذه الطرق والأدوات من فك بعض رموز لغة الجسم. فتوصل إكمان Ekman من تحليل شفرات خمسين ابتسامة مختلفة. ودرس شيفلن Schefflen أوضاع الجسد المختلفة وتكرارها، واهتم قوفمان Goffman بالطقوس في المجتمع، فيما اشتغل إكسلين Exline حول التصرفات المختلفة للشخص الواحد، واهتم ديتمان Dittman بحركات القدمين واليدين، أما مهرايان Mehrabian فقد وضع مقاييس تصنيف درجات التقارب والتباعد.. إلخ.

وعلى الرغم من تباين المنطلقات النظرية والمنهجية التي تمت في هذا المجال، إلا أن الباحثين يجمعون على مسألة أساسية مفادها أن اللغة غير اللفظية تلعب دورا أساسيا في الاتصال بين الأشخاص، ويؤكدون إلى جانب ذلك على أن التعبير غير اللفظي ليس لغة منظمة، وأن حصر قاموس خاص بهذه اللغة ليس بالأمر الهين. وفي هذا المجال ينبه البعض إلى ضرورة توخي الحذر عند الإقدام على فك دلالات اللغة غير اللفظية، فمن الخطورة بمكان الاعتقاد بعلم دقيق انطلاقا من الملاحظات الشخصية التي هي في أغلب الحالات تعتبر موضوعية دون الاعتماد على دراسات جادة. ويقترح البعض إن قراءة اللغة غير اللفظية يمكن أن تتم بطريقتين مختلفتين وبأهداف متعارضة. تهتم الأولى بقياس العناصر المكونة للغة غير اللفظية التي تظهر في وضعيات محددة انطلاقا من الآثار السلبية التي يمكن أن تحدث تشويشا في عملية القراءة. إن هذه التجارب التي تتم عادة في المخبر لم تؤدي إلى نتائج مثمرة بحيث تساعد على التحكم في المتغيرات المدروسة. تعتمد هذه الطريقة في تسجيل سلوكيات الأشخاص على الفيديو.

بعد مرحلة التصوير يشرع الباحث في تحليل السلوكات والتصرفات للوصول إلى نتائج، على أن ما يهم الباحث في هذه الطريقة هو الرسالة التي يتم نقلها. عموماً إن هذه الطريقة العلمية مقبولة لكنها تتطلب أن يتم التأكد من صدقها. أما الطريقة الثانية فتعتمد على تقويم العناصر التي تم ملاحظتها وتفسيرها من قبل مجموعة من الملاحظين الذين خضعوا للتدريب على الملاحظة. إن هؤلاء المحكمين يراقبون جماعياً خلف مرآيا أو من خلال جهاز الفيديو، ويقوم كل مشارك بتدوين وبشكل فوري طريقته في إدراك الرسائل للعناصر التي هي محل دراسة. إن هذه الطريقة تبدو أقل علمية من الأولى، لكنها تهتم بالرسائل المستقبلية من قبل المتلقي. ومثلما هو حاصل في الاتصال فإن وجود الرسائل مرهون بالطريقة التي تستقبل بها.

والواقع أن فك دلالات اللغة غير اللفظية في الحقيقة ليس بالأمر الهين، على الرغم من أن هذه الرموز والدلالات تنتمي إلى حياتنا اليومية وتحتل حيزاً كبيراً في علاقاتنا الشخصية، ذلك أننا نستعمله يومياً وبطريقة لا شعورية في قراءة سلوك الناس الذين نتعامل معهم. إن اللغة غير اللفظية التي يرسلها المتحاورون معنا في حقيقة الأمر تحيلنا إلى ما نقوم به نحن، أو ما قام به أشخاص آخرون أمامنا، وهذا ما يمكننا من فهم ما يجري، ذلك أن معاملاتنا تعتمد على فك الرموز بطريقة تلقائية الأمر الذي يمكننا من التكيف في الحياة الاجتماعية.⁽⁶⁾

لقد أجريت الدراسات العديدة لبحث مسألة فيما إذا كانت الإشارات الصامتة فطرية أم مكتسبة أم متنقلة بالوراثة، أم أن الإنسان يمتلكها بأية طريقة أخرى. وقد توصل البعض إلى استنتاجات هامة استخلصوها من ملاحظة العميان والصم الذين يستطيعون تعلم الإشارات الصامتة من خلال السمع أو البصر، ولاحظوا أن تعابير الابتسامة عند الأطفال المولودين صم وعمي تحدث

تلقائياً من غير تدخل من جانب التعليم أو التقليد. إلى جانب ملاحظة الكثير من الإيماءات السلوكية التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة في جميع أنحاء العالم ومن خلال دراسة سلوك الحيوانات. وقد بينت هذه الدراسات أن معظم الثدييات يولدون ولديهم القدرة الفورية على المص. وذهب البعض إلى حد دعم اعتقادات دارون المتعلقة بالإيماءات الفطرية عندما درسوا تعابير الوجه لأشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة. واستخلصوا أن كل ثقافة تستعمل نفس الإيماءات الوجهية الأساسية للتعبير عن الانفعال، وهذا ما قادهم إلى الاستنتاج أن هذه الإيماءات فطرية.⁽⁷⁾

ومن جهة لاحظ الباحث الأمريكي قوفمان أن الكائنات الحية سواء كانت بشراً أم حيوانات تمارس وتعبّر عن نوعين من أنواع النشاط فهي إما تتصرف في سلوكها بهدوء، وإما تثور لحشد قواها قصد المواجهة. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن الحيوانات التي تكثر من النوم فترات طويلة وتبطئ في حركتها هي أقل إحساساً بالبيئة المحيطة بها، وذلك على عكس تلك التي تتحرك وتنتقل باستمرار، وهناك أيضاً منيمر بفترات من التوتر وأخرى من الهدوء مثل الأسد الذي لا يعير أعداءه انتباهاً في حالة الاسترخاء، بينما يشتد حرصه حين يترصد بفريسة ما.

وانطلاقاً من ملاحظة قوفمان فإن الناس ينقسمون إلى فئتين تميل الأولى إلى التوتر والأخرى إلى الهدوء. وقد شبه الأولى بالغزال الدائم التأهب للفرار، والثانية بالبقرة التي تتسم بالهدوء، نفهم من هذا أن ما ينطبق على الحيوان ينسحب على الإنسان مع اختلاف طفيف يكمن في الاستعداد للرد بطريقة فعالة ومؤثرة على إشارات الإنذار المتلقاة مع إحداث قدر من التغيير في العادات والسلوك، وهذا الهدوء في معالجة الأمور يعود حسب رأيه إلى التجربة والخبرة، فهنا يعرف أصحاب الخبرة عن غيرهم⁽⁸⁾

لا يتوقف اختلاف اللغة الكلامية من ثقافة إلى أخرى كما هو معروف، بل إن السياق الذي ترد فيه يلعب دورا هاما في تحديد معناها، فقد يتعذر تحديد معنى الكلمة الواحدة بمعزل عن الجملة، وبالمثل فاللغة الإيمائية هي الأخرى يتحدد معناها وفق سياق معين. تجرنا هذه الملاحظة إلى الحديث عن دلالات الحركة، علما أن المرء يتحرك كي يشبع حاجة لديه كما يرى لابان الذي يعتبر الحركة بمثابة عملية لغوية مزدوجة الاتجاه يمكن للجسد البشري أن يتواصل من خلالها عن طريق إرسال واستقبال الرسائل. وقد اعتقد أن فهم وإدراك هذه اللغة (المهملة) سيساعد على الفهم الأفضل للمحيط. وعليه فإن الباحث في مجال لغة الجسم مطالب أن يدرك أن أية حركة تنشأ عن الاعتماد المتبادل بين الجسد والعقل والروح. ويرى لابان أن الإنسان المعاصر فقد الكثير من هذه المتعة العفوية في الحركة التعبيرية عن طريق أوهامه التأملية، وأصبح التركيز على مكافآت العمل والمكانة المادية في المجتمع.

إن ملاحظة وتحليل الحركات سواء الإرادية أو الإرادية تمكنا من التعرف على حاجة الشخص المتحرك إلى جانب إدراك الموقف الداخلي الذي يسبق الفعل. ويظهر هذا الموقف من خلال الإيقاع والشكل أو النمط الخاص بالمسار المكاني الذي يختاره في موضع معين، ذلك أن الإنسان لديه القدرة على اختيار الحركة ويمكنه تغيير أو تكييف سلوك حركته حين يشاء.

لفهم دلالات الحركة نسلط الضوء على بعض أدوات التعبير ونستهلها بالتمييز بين أوضاع الجسم في مقابل الإيماءة. وقد أجرى الدارسون تمييزا بين أدوات التعبير أهمها الفرق بين الإيماءة Gestuelle ووضع الجسم Posture. وفي هذا الإطار يرى لامب Lamb وواطسون Watson أن الإيماءة هي

مفتاح قراءة لغة الجسد، وعليه فإننا مطالبين بالنظر إلى ما هو أبعد من الإيماءات، أي إلى الأوضاع الجسمية الأكثر ارتباطا بالانفعالات والأكثر بروزا أو سيادة على ما عداها من أوضاع خاصة. وقد عرف لامب وواطسون الإيماءات بأنها حركات تخص أجزاء معينة من الجسم كاليد أو حاجبي العينين التي تستخدم بشكل مستمر وواع من أجل توصيل رسالة معينة إلى الآخرين، فضلا عن أن الإيماءة تأخذ دلالات متباينة وفقا للثقافة الخاصة بها. أما الأوضاع الجسمية فتتميز بأنها تظهر اتساقا في المعنى من خلال الجسد كله. لكن طابعها اللاشعوري قد يجعلها تتعارض أحيانا مع الرسائل التي يتم تبليغها من خلال الكلمات والإيماءات. ومن هنا فإن الأوضاع الجسمية هي التي تعمل على إظهار المظهر الخارجي للشخص. علما أن الفرق الأساسي بين الإيماءة والوضع الجسمي يكمن في مستوى الاندماج الانفعالي، حيث تعبر الأوضاع الجسمية عن المشاعر العميقة، بينما تعتبر الإيماءة شكلا من أشكال التخاطب الاجتماعي التي يمكن استخدامها بدلا من أو بالإضافة إلى الكلمات.

ومن جهته يميز بنديتي Bendetti بين الإيماءات الإشارية Indicative والإيماءات التوكيدية Emphatic والإيماءات الاجترارية أو الفصامية** Antistic. أما بخصوص أنماط الوضع الجسمي فيحدد جيمس James تصنيفا للأوضاع الجسمية ويحصرها في أربعة أنواع رئيسية، وقام بتنظيمها على هيئة أوضاع جسمية ثنائية ذات أقطاب متعارضة هي:

1- الاقتراب أو الإقبال Approach حيث يتسم الوضع بالانتباه والميل بالجسم للأمام.

2- الانسحاب Withdrawal وهو عكس الاقتراب ويشمل توجهات حركية سلبية كارتداد للخلف أو التحرك بعيدا.

3- الامتداد Expansion كما هي في حالة التفاخر أو الغرور ويشتمل

هذا الوضع على انتصاب الراس والصدر وانفتاح الأطراف.

4- التقلص أو الانكماش Contraction ويشتمل على خفض النشاط

والشعور بالوهن والتهالك أو التراخي.*** (9)

وإلى جانب دلالات الحركة الناجمة عن الإيماءة أو أوضاع الجسم فإن الملامح تعتبر أساسية، ذلك أن الوجه يعد أحد العناصر الأساسية في جسم الإنسان بقدرته على التعبير المكثف، وذلك من خلال الإشارات التي يرسلها سواء كانت واعية أو غير واعية، والتي تعبر عن حالته الشعورية والصحية ودرجة انتباهه وآراءه الخاصة وموقفه العام. وأهم إشارات الوجه هي الابتسامات والضحكات التي تعبر عن الاهتمام والترحيب أو البهجة واللذة والمتعة. وكذلك الدموع وعلامات العبوس التي قد تعبر عن الحزن والغضب أو عدم الرضى والقلق. ولا يحتاج المؤدون عادة إلى التدريب على إرسال هذه الإشارات، لكن عليهم إقناع المتفرجين بصدقها وهو ما يتطلب مهارة كبيرة. (10)

وقد توصلت الدراسات التي أجريت على الملامح لا سيما تلك التي حاولت رصد التعبير الانفعالي إلى أن الجانب الأيسر من الوجه الإنساني بشكل عام أكثر تعبيرية من الجانب الأيمن.***

تشكل العيون عنصراً أساسياً في الاتصال، وهذا ما جعل الباحثين والفنانين يولون عناية خاصة لتعبير العيون، ذلك أن العيون هي أكثر أجهزة إرسال الإشارات الاجتماعية التي تمتلكها قوة. وقد ذهب البعض إلى حد وصفها بـ "نوافذ الروح". يقوم الناس خلال المحادثات التي تدور بينهم عادة بالنظر في عيون بعضهم البعض لفترة تعادل ثلث وقت المحادثة ويوحى الوقت الأقل من هذا على حدوث الشعور بالخطأ والذنب والملل أو عدم الاهتمام، أما

الوقت الزائد على هذا فقد يدل على حدوث تهديد ما بشكل أو

آخر ***** (11)

تشكل الأيدي والأصابع أدوات هامة في التعبير، فقد تستخدم في تحقيق عدد كبير من الأفعال لا سيما في فنون الأداء، فضلاً عن أن الأيدي تتدخل بشكل مباشر في الإفصاح عن مكنون النفس أو دلالة الموقف، فتساند التعبير اللغوي وتكمّله، كما تساهم في تجسيد مواقف التلاقي الجسدي. وتستخدم الأصابع بدورها في الإشارة والنداء، وأحياناً تشابك لتعبر عن مشاعر متباينة. وأهم من هذا وذاك تمثل الأيدي والأصابع أول نقاط التماس بين جسدين مختلفين وعلى هذا تصبح أول علامات الثقة والتقارب الحميمي. أما بخصوص الفم فإن طاقته التعبيرية تتجاوز وظيفته الرئيسية وهي إصدار الكلمات والأصوات، فأجزاء الفم المختلفة مثل الشفاه والأسنان واللسان تمثل منبعاً ثرياً من منابع التعبير. (12)

المنطقة والمجال:

تحتل المسافة التي يتخذها الجسم في الفضاء دوراً أساسياً في قراءة دلالات الحركة والإيماءة، وفي هذا المجال تجدر الإشارة أن مفهوم التقارب يعود إلى مطلع الستينيات من القرن الماضي حيث ابتكر الباحث الأمريكي إدوارد هول كلمة Proximics وتعني التقارب Proximity أو القرب Nearness ويعد هول أحد رواد دراسة حاجات الإنسان المكانية. وقد أفضى بحثه في هذا المجال إلى مفهوم جديد عن العلاقات الحاصلة بين الناس، وشبه كل منطقة بالبلد المحاط بالحدود الواضحة المعالم المحمي من قبل الجيوش، وفي داخل كل بلد هناك مناطق أخرى أصغر على شكل ولايات أو أقاليم، وضمن هذه المناطق الصغرى

توجد فضاءات أقل حجما تمثلها المدن والتي تشتمل بدورها على الضواحي، وتتضمن هذه المناطق أحياء وشوارع كثيرة. وتعتبر هذه الفضاءات بمثابة مناطق مغلقة للذين يسكنونها. ويشارك سكان كل منطقة ولاء وإخلاصا غير محسوس لها، ويدافعون عن المنطقة في حالة الشعور بالخطر. والمنطقة عبارة عن مساحة أو فراغ يعتبرها الفرد امتدادا لجسمه. وكل شخص يملك منطقته الخاصة به وتتضمن المساحة التي تحيط بأشياءه مثل بيته وسيارته وغرفة نومه أو كرسيه الشخصي. (13)

يهتم التقارب بكيفية استخدام الإنسان للفراغ المحيط به بصفة مباشرة. وفي هذا الإطار يقسم واطسون السلوك التجاري إلى محورين أساسيين يتضمن الأول مستويين: الحيزية الصغرى وتشمل "القاعة الهوائية" التي يبلغ قطرها مترا المحيطة بنا والتي تتفاعل داخلها العوامل الشمسية والحرارية، والحيزية الكبرى، وتشمل الفراغ المحيط بالإنسان في المدينة. أما المحور الثاني فينظم عملية إدراك الأسس الحضارية والثقافية للفراغ ويدخل في ذلك العامل الأنثروبولوجي كالردفاع عن الفراغ الفردي وحدود هذا الفراغ قبل أن يحدث احتكاك للفرد بالمجموعة. وقد أثارت هذه المفاهيم اهتمام قوفمان حيث ذكر في كتابه: "Presentation of self in every day life" أن جزءا هاما من الدراسات الخاصة بالبنوية والحسية والحركية والبارالغوية أو اللغة الموازية متضمن في المفهوم العام للاتصال غير اللفظي الذي يشمل الحواسي واللمسي والتجاوري، بالإضافة إلى الصمت وأنظمة لغة الدلالات والوسائل الاصطناعية كالملايس والشعر. (14)

والواقع أن الحيز الشخصي لا يخص الإنسان، بل إن معظم الحيوانات تمتلك حيزا فضائيا معيناً حول أجسامها وتعتبره حيزا شخصيا وتعتمد أبعاد هذا

الحيز بشكل رئيسي على مقدار ازدحام الظروف التي نشأ فيها الحيوان. مثل هذه الحيوانات فإن الإنسان يمتلك حيزه الفضائي المتنقل أو "فقاعة الهواء" الذي يحمله حوله، وحجمه يعتمد على الكثافة السكانية في المكان الذي نشأ فيه. لذلك فإن هذا المجال الشخصي محدد ثقافيا. يفضل البعض الأجواء المفتوحة، في حين تستهوي البعض الآخر الأجواء المغلقة. كما أن الحالة الاجتماعية كذلك لها تأثير على المسافة التي يقف عندها الشخص أثناء تعامله ومقابلته للآخرين. وفي هذا المجال ينبغي الإشارة إلى أن هناك فروقا ثقافية كبيرة في استخدام الحيز الاجتماعي حيث تفضل شعوب البحر الأبيض المتوسط وأمريكا الجنوبية والشعوب العربية القرب الأوثق والتلامس الأكثر مقارنة بشعوب أمريكا الشمالية، بينما يفضل الانجيز حالة التحفظ الصامت. وقد يحدث سوء فهم بين الأشخاص الذين ينتمون لحضارات مختلفة.

ونظرا لأهمية الإقليمية في حياة الإنسان، فإنه يحرص على تنظيم فضاءه علما أن مجالاتنا محددة بقوانين أو بضرورات مهنية، وبعبارة أوضح لا توجد مناطق محايدة. وفي هذا الإطار يمكن بسهولة التمييز بين ثلاثة أقاليم تخص الإنسان: الإقليم القبلي وفيه يتم التعبير عن الانتماء إلى القبيلة من خلال علامات محددة ذات خصوصية (العلم الرموز اللغوية..). الإقليم العائلي وهو محدد ومثبت قانونا وتمثله الشقة البيت التي هي أقاليم طبيعية للعائلة. وأخيرا الإقليم الشخصي الذي يحدد على ضوئه موقع كل فرد داخل الإقليم العائلي. (15)

أما بخصوص كيفية التعرف على الأقاليم فيمكن الانطلاق أولا من خلال الإدراك الثقافي ذلك أن الأقاليم تستجيب لمقاييس ثقافية ينبغي فك دلالتها، يمكن ملاحظة ذلك في طريقة ترتيب الأثاث وتنظيم فضاء البيت والعمل، علما أن احتلال مساحة هو امتداد للشخصية وللمكانة الاجتماعية. (16)

أما بخصوص المجال الحركي الذي شبهه البعض بفقاعة جسمانية كبيرة نستطيع أن نتحرك داخلها في كل الاتجاهات. وإذا تحركنا نحو جزء آخر من أجزاء الحجرة مثلا سيتحرك مجالنا الحركي دوما معنا. وإذا ما مر شخص ما بالقرب منا يمكن لكلا المجالين الحركيين أن يتداخلا في أي لحظة. ويقع أي شيء خارج إطار تناولنا في الفضاء العام. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أن الأشكال المكانية داخل إطار المجال الحركي وارتباطها بالجسد المتحرك تتم في إطار ما يوصف بـ *Choreutics* أو القوريوطيقا، ويفضل البعض الآخر أن يطلق عليها دراسة التناغم المكاني *Space harmony* ذلك أن الإنسان جزء عضوي من عالم متكون من الجزيئات والبروتونات والنيوترونات والذرات. ومن الدوافع التي تستجيب لتأثير ذبذبات النغمة ومن تغيرات في المادة تحدث بسبب الحرارة والبرودة حيث تتحرك الطاقة في صورة جهد مكاني متواتر داخل الكتلة. ولا تشغل أجسادنا حيزا في الفضاء وحسب بل تتحرك في داخله. (17)

ومن هنا فإن دراسة الأشكال المكانية بارتباطها مع الجسد المتحرك عبارة عن دراسة للتناغم المكاني ويرجع ذلك إلى التقارب الضمني. وفي هذا المجال فإن المسافات التي تفصل بين الناس في علاقتهم ببعضهم تلعب دورا أساسيا في عملية الاتصال. تعد هذه المسافة وسيلة هامة لقراءة وتقويم هذه العلاقة، ويتوقف فهم دلالة هذه العلاقة على الثقافة التي تختلف من مجتمع إلى آخر. عموما يمكن تقسيمها إلى أربعة مجالات:

1- المجال الخصوصي: بين 15-45 سم يعتبر هذا المجال الأهم لأن الشخص يقوم بحراسته كما لو كان أحد خصائصه ولا يسمح بدخوله إلا لمن هم على صلة عاطفية قوية به وهم الأباء، الأزواج، الأولاد، الأصدقاء المقربين والأقارب. وهناك مسافة أقل من هذا المجال وتمتد حتى 15 سم من الجسم والتي يمكن

الدخول إليها فقط حين التماس الجسدي وهذا هو المجال الخصوصي جدا. من الناحية الثقافية هذا المجال مشغول في أغلب الحالات من قبل سكان الجنوب الذين لا يترددون في التماس. عموما عندما يدخل شخص أجنبي غريب إلى هذه المنطقة نشعر بعدم الارتياح، ونعتبره متطفلا ويمكن ملاحظة ذلك عند الشخص الذي يبحث عن التهديد فيدخل هذه المنطقة من أجل إشعارنا بالخوف.

المجال الشخصي: من 60 إلى 20,1 هذه المسافة تتخذها في الحفلات الرسمية وشبه الرسمية والفعاليات الاجتماعية. وتعبّر عن العلاقات الودية.

المجال الاجتماعي: 20,1 - 6,3 سم. نقف عند هذه المسافة بالنسبة للغرباء، أو مع الناس الذين لا نعرفهم جيدا. يمكن ملاحظة ذلك في الاتصال المألوف، حيث يمكن للشخص أن يمد يده لمصافحة شخص آخر إذا كان يرغب في ذلك، حتى ولو كان الشخص لا يتعارفان. هذه المسافة تسمح بالتبادل والتفاوض.

المجال العام: أكثر من 6,3 متر. عندما نخطب مجموعة كبيرة من الناس فإن هذه المسافة مناسبة لإلقاء خطبة أو عرض، أو المشاركة في نقاش عام. وهي مسافة ظرفية مرتبطة بالمناسبات. (18)

وخلاصة القول إن المجالات المكانية تختلف من ثقافة إلى أخرى ومن محيط إلى آخر، ذلك أن المجال الضروري للفرد الواحد ترتبط بالكثافة السكانية للمنطقة التي نشأ فيها، فالذين نشأوا في أماكن ريفية غير كثيفة السكان يحتاجون إلى حيز شخصي أكثر من أولئك الذين نشأوا في المدن ذات الكثافة العالية. ومن هنا فإن أية دراسة جادة للمجال لا بد أن تأخذ بالحسبان المحيط الثقافي.

* تعد الدراسة التي قام بها شالز دارون في كتابه " التعبير عن الانفعالات لدى الإنسان والحيوان" المنشورة في 1872 في طليعة البحوث التي نبهت إلى أهمية لغة الجسم، حيث لاحظ أن الكثير من تعبيراتنا الانفعالية يمكن استنتاجها منطقيا من ميلنا أو نزعاتنا السلوكية.

** الإيماءات الإشارية كأن نقول مثلا مع الإشارة باليد عن أحد الأشخاص: "لقد ذهب من هذا الطريق". أما الإيماءات الاجترارية التي لا يكون المقصود منها ابدا التواصل مع الآخرين، لكنها مع ذلك تكون معبرة عن الذات. وفي هذا المجال فإن الشخص الذي يكتفم أو يخفي مشاعره العدائية من خلال عقد ساعديه أحدهما على الآخر، فهذا إشارة إلى رغبة هذا الشخص في رفض الأشخاص الآخرين. إن هذا النوع من الإيماءات يقترب من الوضع الجسمي.

*** يطلق على هذه التسميات في الوقت الحاضر تسميات أخرى: الدافئ

Warm البارد Cold المسيطر Dominant والخاضع Submissive

**** استخلص الباحثون هذه النتيجة من التجارب التي كانت تسعى إلى تحديد الانفعال الذي يحاول ممثل معين أن ينقله، وذلك من خلال النظر إلى صور فوتوغرافية لوجهه الذي تم تقسيمه من خلال القطع الخاص للصور إلى نصف أيمن ونصف أيسر. ويعزو أصحاب هذا الطرح إلى أن النصف شبه الكروي الأيمن من المخ يشعر أكثر بالانفعالات مقارنة بالجانب أو النصف الأيسر البارد والمنطقي، وأن هذا الانفعال يتم نقله إلى العضلات الموجودة في الجانب الأيمن من المخ. وعندما يكون هذا الأثر كبيرا بدرجة كافية ومن أجل أغراض عملية فإن الممثل الذي يكون موجودا في الجهة اليسرى من خشبة المسرح، لا بد أن

ينعم بميزة خاصة فيما يتعلق بقدرته التعبيرية التي ترسم على الوجه (انظر جين ويلسون، المرجع السابق ص 190)

إن هذه الظاهرة لها ما يماثلها في ميدان فنون الأداء، حيث يقسم المختصون منصة المسرح إلى ثلاثة أقسام يمين ووسط ويسار (يمين ويسار الممثل تصبح يسار ويمين المشاهد) علما أن قوة هذه الأجزاء الثلاثة من المنصة هي أن الوسط هو أقواها وأن اليمين قوي وأن اليسار أضعف. والواقع أن يمين المنصة أقوى من يسارها، علما أن هذه المسألة لم تسو في سيكولوجية علم الجمال. فقد دلت التجربة أنها حقيقة ولكن دون أن تعطي سببا مقنعا لذلك. ويبدو أن السبب الواضح هو النظر من اليسار إلى اليمين عند القراءة وربما هذا ينطبق على كتابة اللغات الغربية. وقد يحدث الأمر نفسه عندما يقف المرء أمام لوحة زيتية فإن أول لفظة تكون في اتجاه اليسار، وكذلك الحال في المسرح، فعندما ترفع الستارة فإن المتفرج يتطلع نحو يسار المنصة أولا. لكن هذه المسألة لا تنطبق على الإخراج الصحفي حيث يعتبر العمود الأيمن أهم من العمود الأيسر، فهو المكان الذي تنشر فيه الأخبار الهامة. (انظر الكسندر دين، اسس الإخراج المسرحي، ترجمة سعدية غنيم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 198 ص 197-169) ***** يظهر الفرق كذلك بين الجنسين، إذ تميل النساء إلى أن تكون أكثر قربا من الأصدقاء الحميمين وأكثر بعدا من المعارف غير الحميمين، مقارنة بالرجال الذين يكونون أقل إحساسا بطبيعة العلاقة عندما يكون المطلوب منهم هو تحديد أو اختيار مسافتهم الجسمية، فيميل الناس العاديون إلى البقاء بعيدا بدرجة كافية عن الملكة أو الرئيس أو زعيمهم أكثر مما يفعلون بالنسبة لأننادهم الاجتماعيين. (انظر جين ويلسون المرجع ص 215)

1- Jean Caune, Esthétique de la Communication, Paris, Presse Universitaire de France, 1997 p 4.

- 2- أوجينيو باربا وآخرون، طاقة الممثل، ترجمة سهير الجمل، القاهرة: أكاديمية الفنون، 1999، ص 8
- 3- المرجع نفسه، ص 9
- 4- جين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، ترجمة شاكر عبد الحميد، الكويت: عالم المعرفة، 2000، ص ص 167 - 168.
- 5- ألن بيز، لغة الجسم، ترجمة هاني غاوي، عمان: المطابع المركزية، 1992، ص 5
- 6- Jean Claude Martin, le guide de la communication, Paris, Marabout, 1999 p 52
- 7- ألن بيز، المرجع السابق، ص 7
- 8- أوجينيو باربا، المرجع السابق، ص 33
- 9- جين ويلسون، المرجع السابق ص 200
- 10- جوليان هلتون، نظرية العرض المسرحي، ترجمة نهاد صليحة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص 16
- 11- جين ويلسون، المرجع السابق، ص 186
- 12- جوليان هلتون، المرجع السابق، ص 165
- 13- ألن بيز، المرجع السابق، ص 20
- 14- أوجينيو باربا، المرجع السابق، ص 20
- 15- جين ويلسون، المرجع السابق، ص 215
- 16- Jean Claude Martin, op cit p 58
- 17- جين نيولاق، منهج لابان للممثلين والراقصين، ترجمة نيفين جلال الدين وعبير محب نعمة الله، القاهرة: أكاديمية الفنون، 1998، ص 26
- 18- أنظر: أ - ألن بيز، المرجع السابق، ص 21
ب- Jean Claude Martin, opcit p 63